المناحة الدائمة

فى الأغانى المصرية

للأستاذ محمد قطب

فى مصر — فى أغانيها وموسيقاها — مناحة دائمة . فحيثما استمعت إلى المذياع أو إلى المغنين فى المجالس والطرقات طرقت أذنك تلك الألحان الحزينة المتهالكة الشاكية تتخللها آهات كآهات المرضى أو حشرجات كحشرجات المحتضرين !

والدنيا جميعها تألم وتفرح وتهدأ وتثور وتتعاقب عليها الشعورات البشرية المختلفة ولكننا فى مصر فى نشيج دائم متحد المعنى متماثل الأنغام لا يختلف إلا فى الصوت الذى يؤديه !

الدنيا كلها تحس نشاط الربيع الزاخر الذى يفتت القيود وينطلق بالنفس الإنسانية حيثما تستطيع الانطلاق ، وتحس بوقدة الصيف اللاذع الذى تتقى أو تحب حرارته ، وتحس بهدأة الخريف الراكد المظلم الحزين ، وتحس بلذع الشتاء المؤلم الذى تنطوى فيه النفس على ذاتها أو تصيح بالألم ، ولكننا فى مصر فى خريف دائم من الأحاسيس ، محزونون راكدون لا نخرج مرة إلى نشاط الحياة !

وهذا عجيب . فليس من المعقول أن يكون الله قد منح الشعوب جميعها نعمة الحياة المتجددة المختلفة الألوان وخص مصر وحدها بهذا الموت الفنى الذى تلهث أنفاسها تحت عبئه الثقيل .

ليس هذا بمعقول . وإنما مصيبة مصر أنها نكبت بطائفة من الموسيقيين يشيع فى أحاسيسهم اللين والطراوة ، فتنبعث ألحانهم متكسرة رخية توحى بالتراخى والكسل ولا توحى مرة واحدة بالنشاط والحياة .

وقد حاول هؤلاء الموسيقيون أو المدافعون عنهم أن يتهموا الشعب المتعرى بأسره بأنه شعب مريض متخاذل حزين ، وقالوا فى سبيل الاستدلال أنه لو لم يكن مريضا لما قبل هذه الألحان المريضة ولا طرب لها هذا الطرب الشديد !

وهذا منطق مقلوب . فأى شعب فى الدنيا يقدم له هذا الغذاء المسموم باستمرار ولا يقدم له غيره أبدا ثم يبقى فى بنيته بعد ذلك شىء من السلامة ولو كان من أصح الشعوب ؟

ومع ذلك فقد بقيت فى هـذا الشعب الذين يدعون عليـه المرض بقية كبيرة فى المدن وفى الصعيد وفى الريف لم تفسدها الأغانى المائعة ولم تمسخ طبيعتها، فبقيت ترنم بألحان فيها قوة وسلامة لعل المستمعين إلى الإذاعة قـد لحظوهما فى الأغانى الصعيدية التى تذاع بين الحين والحين فيقبل عليها الشعب ويرددها فى كل مكان .

وهم يقولون إن الشعب المصرى بطبيعته شعب حزين فلا تلائمه الا الأنغام الحزينـة التى تشبه ألحان الجنائز . ويستدلون على ذلك بأن الألحان الفرعونية التى عاشت حتى اليوم فى الكنائس وغيرها كلها ألحان حزينة مشجية لافرح فيها ولاانطلاق . وهذا بعض الحق وليس هو الحق كله . فلا شك أن الشعب المصرى ميال الى الحزن مندفع اليه ولكن لا شك أيضا فى أنه ميال الى الفرح مندفع اليه بقوة . فلا تجد مجالا للفرح و"الهيصة" الا اغتنمه المصرى وأغرق فيـه . بل إن المصرى سريع الاندفاع الى كثير من العواطف . فهو سريع الحزن سريع الغضب سريع الفرح سريع الحماسة سريع الهدوء بعد ذلك . فما بال هؤلاء الموسيقيين قد راحوا يضربون على النغمة الحزينة وحدها ولا يغيرونها أبدا مع أن المصرى شديد الاستعداد لأن يتلقى غيرها من النغمات وخاصة ما هو متصل بالفرح والحماسة ؟ ! .

لقد عمدوا الى ذلك ثم راحوا بعد ذلك يتهمون الشعب كله بالخور والقصور . .

ثم مسألة أخرى . فلنفرض جدلا أن الشعب المصرى لا يستطيب إلا لونا واحدا من الغناء هو الغناء الشجى الحزين، فمن قال إن الحزن والشجى يعنيان المرض والذلة والانكسار. إن الحزن ألوان عدة منها القوى ومنها الضعيف، منها السليم ومنها المريض، فلماذا لا يقدمون للشعب حزنا آدميا سليما إن كان لا بد من الحزن ؟ وإن كان يعوزهم المثال فليذهبوا الى قرى الصعيد وليستمعوا هناك الى الشجى الحقيقى . شجى الرجل الذى يتألم فتحس فى ألمـه بالرجولة لم تتكسر ولم تذل، وتحس أنه شجى إنسان حى يتعذب فيرسل نفسه لحنا شجيا وليس هو تأوهات لينة مستخذية الأنين .

وهم يقولون أيضا إن الشعب المصرى بعد أن طال عليه الاحتلال قـد صار يحس فى "لا شعوره" بالألم وعلى هذا فأغانيهم المريضة هى الصدى الحقيقى لإحساس الشعب . وفى ذلك شىء من الحق وليس الحق كله . فقد مرت على الشعب فترات كان لا يجد فيها نفسه ولا يحس بكيانه . ولكن الشعب الذى هضم الحضارات كلها وابتلع جميع أنواع الاحتلال وبقى بعد ذلك كله محافظا على تقاليده وعاداته لم يؤثر فيـه شىء ، ذلك الشعب لا يمكن أن تموت روحه الكامنة أو تهن على ممر العصور وإن هى إلا قشرة رقيقة تزيحها حتى تجد مصر الحقيقية — مصر القوية من وراء تلك المظاهر الجوفاء .

فهل حاول هؤلاء الموسيقيون أن يتعرفوا روح مصر الحقيقية وأن يمثلوها لنا فى فن صحيح ؟ .

ويقولون إن الألحان المصرية أو الشرقية الخالصة لا تكفى وحدها للتعبير الفنى الكامل ويبررون بهذا ما يقومون به من السرقة الصريحة من الألحان الغربية ما يوافقنا منها وما لا يوافقنا سواء !

وخروج موسيقى مصرى واحد كسيد درويش استطاع أن يقدم ألوانا مختلفة من الموسيقى للتعبير عن الألوان المختلفة من الأحاسيس ، واستطاع أن يقدم فوق ذلك تعبيرا إنسانيا صحيحا لا مرض فيه ولا حيوانية مستخدما فى ذلك الألحان المصرية والشرقية الخالصة — موسيقى واحد كسيد درويش ينفى جميع هذه المزاعم التى يستتر وراءها أولئك الموسيقيون .

ثم إن الموسيقى فن واحد من الفنون التى تعبر عن النفس الانسانية ولها أخوات هى الشعر والتصوير والنحت وغيرها من الفنون ... فما بال هذه الفنون الأخرى قد تقدمت جميعها خطوات واسعة وبقيت الموسيقى وحدها متخلفة عاجزة عن أن تساير النهوض ؟ إن الشعب الذى أخرج فطاحل الأدباء والشعراء المصريين وأخرج مصورين بارعين ومثالين مجيدين لا يمكن أن يكون كل جهده الموسيقى هو ذلك الذى تقدمه لنا طائفة الموسيقيين الحاليين . ولا بد أن يكون فى أطوائه زخيرة فنية أرقى من ذلك يعوقها عن الظهور هذا الجو المسمم بالغناء المريض .

أيها الموسيقيون ، لقد شبعنا تهالكا وحزنا . أسمعونا مرة واحدة لحن الحياة . أو تنحوا عن الطريق .

محمد قطب